

الصحوة ٠٠ وهموم الوطن العربى والإسلامى
نظرة شاملة

● كثرة همومنا :

أما الصحة الإسلامية فقد عرفناها :

وأما (هموم الوطن العربي) فهي تذكرني بقول الشاعر :

ولو كان همّاً واحداً لاحتملته ولكنهم وثان وثالث !

وإذا ناء شاعرنا بهموم ثلاثة ، فكيف إذا كانت همومنا لا تعد بالآحاد ، بل بالعشرات والمئات ؟! وغدونا ونشيدنا المفضل يتمثل في قول أبي الطيّب :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

ومع تكاثر همومنا وأرزائنا ، وتزاحم السهام التى تتناوشنا ، لا يجوز أن نستسلم للأمر الواقع ، ولا ينبغي لنا أن نياس من العلاج ، وقد تعلمنا من نبينا- كما تعلمنا من سنن الله فى الكون - أن الله ما أنزل داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله ، وهذا يصدق على الأدوية الاجتماعية والمعنوية كما يصدق على الأدوية الفردية والمادية .

المهم أن نلتمس الشفاء ، ولا نسكت على المرض ، وأن نلتمسه ممن يعلمه ، حتى لا نعالج داء بداء مثله أو أشد منه خطراً ، ومن قواعدنا الفقهية الشهيرة : إن الضرر لا يزال بضرر مثله أو أكبر منه . وشاعرنا العربى يقول :

إذا استشفيت من داء بداء فاقتل ما أهلك ما شفاك !

ولا يتم هذا إلا إذا أحسنا تشخيص الداء ، وعرفنا أسبابه الحقيقية ، وأردنا علاجه بصدق ، وأن يكون العلاج استئصالاً للمرض ، وليس مجرد أقراص تسكن الألم إلى حين ، أو مراهم تداوى السطح ، ولا تنفذ إلى ما وراء ذلك من الأسباب الأساسية الباطنة .

* * *

● أصول همومنا سبعة :

إن همومنا التى نشكو منها كثيرة كثيرة ، ولكن أصولها يمكن أن تتركز فى عدد محدود ينبغي أن نتفق عليه . فما هى أصول هذه الهموم ؟

فى ندوة (التراث وتحديات العصر) التى أقامها مركز دراسات الوحدة

العربية بالقاهرة ، فى صيف سنة ١٩٨٥ م حدد د . سعد الدين إبراهيم التحديات فى أربعة أمور ، أطلق عليها رابوع التخلف والاستغلال والاستبداد والتبعية .

وأنا أضيف إلى هذا الرابوع ثالثاً آخر ، يتمثل فى التخاذل والتمزق والتسيب لتصبح الهموم سبعة كاملة ، أسردها فيما يلى :

١ - هم التخلف المزرى ، الذى يجب أن نتحرر منه سعياً إلى التقدم والتنمية .

٢ - هم الاستغلال أو التظالم الاجتماعى ، الذى تعن تحت أثقاله الفئات الضعيفة والكادحة وواجب المسارعة إلى علاجه تحقيقاً للعدالة الاجتماعية .

٣ - هم الاستبداد والطغيان الداخلى ، الذى أصبح شراً من الاستعمار الخارجى ، ووجوب مقاومته ، سعياً إلى الحرية والشورى .

٤ - هم التغريب والتبعية الفكرية والاجتماعية والتشريعية وواجب التحرر منها بحثاً عن الاستقلال والأصالة .

٥ - هم التخاذل المذل أمام العدوان الصهيونى المتغطرس الذى يجب أن نتجاوزه سعياً إلى النصر والتحرير .

٦ - هم التفتت أو التمزق المخزى الذى فرق الوطن الواحد ، والشعب الواحد ، إلى أوطان وشعوب متجافية ، بل متعادية ، وهو ما يجب أن نتخلص منه طلباً للوحدة والتضامن .

٧ - هم التحلل والتسيب الخلقى ، الذى عشن فى وطننا الكبير ، بمختلف صوره ، والذى يجب أن نتطهر منه سعياً إلى التماسك والاستقامة .

فكيف ننظر الصحوة الإسلامية إلى هذه الهموم ؟ وإلى أى حد تهتم بها وتسعى إلى علاجها ؟ وما نوع العلاج أو الحل الذى تقدمه فى سبيلها ؟

* *

● النظرات المرفوضة لتشخيص أدوائنا :

إن للصحوة الإسلامية نظرة خاصة فى تشخيص أدوائنا ، ووصف العلاج

لها ، وهى نظرة تتسم بالشمول والعمق . وهى ترى أن الخطأ أو الخطر فى علاجنا لأوصاب وطننا العربى والإسلامى يكمن فى فقدان النظرة الشمولية العميقة لهمومنا ويتمثل ذلك فيما يلى :



١ - النظرة الجزئية :

يتمثل الخطأ والخطر فى (النظرة الجزئية) التى تفصل أجزاء الكل بعضها عن بعض ، وتنظر إلى كل أمر منفصلاً عن غيره فهى تنظر إلى الاقتصاد منفصلاً عن السياسة ، أو إلى التشريع معزولاً عن التربية أو إلى المجتمع بعيداً عن الفرد .

والواقع يقول : إن الحياة كلها نسيج واحد متصل اللحمة بالسدى ، لا ينفصل فيها جانب عن جانب ، إلا من باب التجريد ذهنى ، والتقسيم النظرى .

ولقد قال أحد السياسيين بحق : « إن الاقتصاد أعظم خطراً من أن يترك للاقتصاديين وحدهم ! وهذا ما يقوله الاقتصادى أيضاً : إن السياسة أخطر من أن تترك خالصة للسياسيين » . وهو ما يمكن أن يقوله السياسى والاقتصادى عن التربية مثلاً : إنها أعظم وأخطر من أن تترك للتربويين وحدهم .

ذلك أن كل واحد من هذه الجوانب يؤثر فى الجوانب الأخرى سلباً أو إيجاباً ، ولا يسوغ بحال أن يستقل منها بالعمل وحده ، دون أى صلة بالمجالات الأخرى فلا تعاون ولا تنسيق .

ومنذ سنوات قريبة عقد مكتب التربية العربى لدول الخليج ندوة مهمة موضوعها : (ماذا يريد التربويون من الإعلاميين ؟) ظهرت بحوثها فى عدة أجزاء .

ومن الواضح أن التربويين يريدون من الإعلاميين ألا تهدم الأجهزة الإعلامية فى الليل ما تشيده المؤسسات التربوية فى النهار . وأن يتعاون الفريقان على بناء الإنسان الصالح والمجتمع الصالح .

ولا شك أن للتربويين مطالب من السياسيين والاجتماعيين والعلميين والمهنيين وكل الفئات ، مثل ما طالبوا الإعلاميين .

كما أن للفئات الأخرى مطالب عند التربويين أيضاً . فإذا أردنا التغيير

والإصلاح حقاً فلننظر : ماذا تريد شرائح المجتمع وفئاته المختلفة بعضها من بعض؟

لهذا تحاول الأيديولوجيات الثورية دائماً أن تسيطر على الحياة كل الحياة لتوجهها جميعاً ، وتؤثر فيها جميعاً وفق فكرتها ، وإلا فإن الإعلام قد يهدم ما تبنيه التربية ، والمدرسة قد تنقض ما يشيده المسجد ، والسياسة قد تهدم ما يبنيه كل هؤلاء ، فإذا لم تكن هناك نظرة متكاملة لحياة المجتمع وأهدافه ، وقيمه العليا ومصالحه الكبرى ، ومحاولة التنسيق بين مختلف المؤسسات والأجهزة ، فإن جهود البناء والتعمير ستضيع سدى ، وتذهب جفاء ، ما دامت معاول الهدم تعمل فى الجانب الآخر ، أو الجوانب الأخرى ، وهو ما شكنا منه الشاعر قديماً بقوله :

متى يبلغ البنسيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم !؟

✱ ✱

٢ - فى النظرة السطحية :

ويتمثل الخطأ والخطر أيضاً فى (النظرة السطحية) التى لا تنفذ إلى الأعماق . وأبرز ما يمثل هذه النظرة اعتقادنا أن همومنا ومشكلاتنا مادية محض ، وأننا نستطيع أن نعالج الماديات بعيداً عن المعنويات ، وأن حديث الإيمان والأخلاق ، يجب أن يطرح جانباً إذا تحدثنا عن مشكلات السياسة أو معضلات الاقتصاد ، أو مصائب التخلف ، وطموحات التنمية ، فلا يصلح لرجال الاقتصاد ، وزعماء السياسة وخبراء التنمية ، أن يتحولوا إلى (دراويش) يتحدثون عن الدين والقيم والفضائل والأتون مستعرا الأوار حول غول الديون ، وشبح الجوع ، وخطر العدو ، وفساد مرافق الحياة ! .

ومن السطحية أيضاً أن نحسب أننا بمجرد أن ننادى بالإسلام شعاراً ، أو نغير مواد القانون الوضعية بمواد إسلامية ، يطلع علينا الصباح ، وقد حلت كل مشكلاتنا وشفينا من كل أدوائنا ، غافلين أن الله فى خلقه سننا لا تحابى ولا تلين ، منها : أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأن التغيير يحتاج إلى عمل طويل النفس ، وتوجيه متعدد الجوانب متنوع الوسائل ، وتربية عميقة الجذور ، مديدة المراحل ، وأن الإصلاح يحتاج إلى تخطيط مدروس ورؤية واضحة للأوجاع وأسبابها وإعداد للمستقبل فى ضوء الاستفادة

من دروس الماضي وإمكانات الحاضر ، كما يحتاج الإصلاح إلى رجال يجمعون بين القوة والأمانة ، يقودون سفينة التغيير إلى بر الأمان .

إن كثيراً من المتدينين - بل من الدعاة الدينيين أنفسهم - يقرؤون بعض الآيات من القرآن الكريم ، ويفهمونها فهماً مغلوطاً ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا أَنْ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامِنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ ﴾ (١) . وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۖ ﴾ (٢) . وقوله : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ۖ ﴾ (٣) . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۖ ﴾ (٤) . فهم يحسبون الإيمان والتقوى والاستقامة والصلاح مجرد أداء الشعائر، والإكثار من التسبيح والتهليل والتكبير، والامتناع عن المحرمات المعروفة من الزنى والسكر ، وأكل لحم الخنزير ونحوها . . مع تغييب العقل ، وإهمال العلم ، وإغفال العمل ، ومجافاة السنن، وانتظار البركة من السماء ، والسماء - كما قال عمر رضي الله عنه - لا تمطر ذهباً ولا فضة .

ولو رجعوا إلى ما كان عليه المسلمون الأوائل الذين أورثهم الله الأرض ، ومكن لهم فيها ، وجعلهم أئمة ، وبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، لعرفوا أنهم لم يحققوا ذلك بالجهد ، والعرق ، والعلم والفكر الدؤوب ، والجهد الصبور ، وهكذا فهموا الإيمان والتقوى والاستقامة والصلاح ، فمزجوا بين الروح والمادة ، ووازنوا بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، وجمعوا بين حظ النفس من الحياة ، وحق الرب في العبادة ، فخدموا الدين بالدنيا ، وأصلحوا الدنيا بالدين ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَّنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ ۖ ﴾ (٥) .

* *

(٢) سورة الطلاق : آية ٢ ، ٣ .

(٤) سورة الأنبياء : آية ١٠٥ .

(١) سورة الأعراف : آية ٩٦ .

(٣) سورة الجن : آية ١٦ .

(٥) سورة آل عمران : آية ١٤٨ .

٣ - النظرة القطرية (الإقليمية) :

ويتمثل الخطأ فى النظرة الإقليمية التى يقول كل قطر أو كل إقليم فيها :
نفسى نفسى ، أو بلدى أولاً ، ويتوهم أنه يستطيع أن ينجو بنفسه لو عاش
وحده ، وانعزل فى دائرة حدوده ، حتى لا يحمل هموم الأشقاء من إخوانه ،
ولا يعنى نفسه بالإسهام فى حل مشكلاتها .

إنها الأنانية الحمقاء التى نراها فى عضو الأسرة ، الذى يهجر أهله ،
ويقطع رحمه ، ليعيش وحده مستأثراً بما لديه من نعمة وثروة ، وينسى أنه
عند الشدائد لا ينجده ولا يحميه إلا أهله . إن الفرد بمفرده ضعيف ، والقطر
بمفرده أيضاً ضعيف .

وهيئات هيئات أن يستطيع قطر واحد - مهما بلغ حجمه أو غناه -
النجاة وحده والوصول وحده ، فى عصر التكتلات الكبيرة ، التى لا مكان
فيها للصغير إلا أن يكون مكان الذيل من الرأس ، أو العبد التابع من السيد
المتبوع .

إن الإسلام يؤكد دائماً أن يد الإسلام مع الجماعة ، وأن الخير فى
الاجتماع والاتحاد ، وأن الشر فى الفرقة والشدوذ ، وأن الذئب « إنما يأكل من
الغنم القاصية » وأن « لا صلاة لمنفرد خلف الصف » . وصدق الله العظيم :
﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ (١) .

* *

٤ - النظرة الآنية :

ويتمثل الخطأ كذلك فى (النظرة الآنية) العاجلة القصيرة النظر ، التى
تعنى بهموم الحاضر فى غفلة عن المستقبل ، كأن المهم عندها أن تتخفف من
عبء هذه الهموم التى يؤودها حملها ، ولا عليها إذا ألقت الحمل من فوق
كاهلها ليحمله الجيل التالى ، أو الأجيال التالية ، أضعافاً مضاعفة .

فهى فى الواقع نظرة موغلة فى الأنانية ، لا تليق بنظرة الأبوة الحانية ، التى
تجعل الأب يشد الحجر على بطنه من الطوى ، ليوفر اللقمة لولده وفلذة كبده .
ولهذا كان من العيب كل العيب على هذا الجيل أن يأكل رزق الأجيال

(١) الصف : آية ٤ .

القادمة مما أفاء الله به من النفط وغيره من المعادن ، أو مصادر الرزق الموقوتة بزمن يقصر أو يطول ، لكنه محدود .

كما لا يجوز له أن يتوسع فى الاستهلاك ، ويستقرض المليارات بالربا الماحق المحق ، ليحمل أعباء هذه الديون للأجيال التى لم تطرق بعد أبواب الحياة .

قد جاء عن أبى بكر رضى الله عنه ، قوله : لا يعجبني الرجل يأكل رزق أيام فى يوم واحد !

يعيب الصديق - بقوله هذا - الرجل المتلاف الذى يسرف فى النفقة ، ويتوسع فى الاستمتاع ، حتى يستهلك فى يوم واحد ، ما كان يمكن أن يكفيه أياماً ، وقد يعتريه بعد السعة ضيق ، فيندم على سرفه فيما فات ، ولات ساعة مندم .

وإذا كان هذا معيباً فى شأن الفرد ، فهو أشد عيباً فى شأن المجتمع ، حين يأكل رزق أجيال فى جيل واحد ، كالأب المسرف الذى ينفق كل ثروته فى حياته ، ويدع ورثته من بعده ، ولا مورد لهم ، يقيهم هوان العيش ، وذل السؤال ، وهو ما منعه النبى ﷺ ، حين نهى سعد بن أبى وقاص ، أن يوصى بماله كله أو ثلثيه أو نصفه - وهى وصية فى البر والخير - ولم يأذن له بأكثر من الثلث ، قال : « والثلث كثير . إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » متفق عليه .

إن عقلية (أحنى اليوم ، وأمتنى غداً) عقلية متخلفة ، يرفضها المنطق ، ويرفضها الخلق ، ويرفضها الإسلام) .

* *

٥ - النظرة التلفيقية :

ومثل ذلك فى الخطأ (النظرة التلفيقية) التى تحاول أن تجمع بين فلسفات وأفكار متنافرة الأصول ، متباينة الغايات ، متعارضة المناهج ، مثل الجمع بين الإسلام والعلمانية ، أو الإسلام والماركسية ، أو الإسلام والرأسمالية ، أو بين الحضارة الإسلامية عموماً ، والحضارة الغربية ، فلا يكون ذلك إلا ضرباً من إضاعة الوقت والجهد ، أو العبث بعقول الناس والتدليس عليهم . سرعان ما ينكشف زيفه .

وقد رأينا فى تراثنا محاولات تلفيقية باءت بالفشل ، مثل محاولات (إخوان الصفا) فى التلفيق بين الدين والفلسفة .

وكثير من النظرات التى نسميها (توفيقية) هى فى حقيقتها (تلفيقية) ولهذا كان نصيبها الإخفاق أيضاً ، مثل محاولات الفارابى وابن سينا - وبعدهما ابن رشد - فى التوفيق بين عقائد الإسلام الثابتة وأفكار أرسطو عن الإله والكون والوجود .

بل حاول الفارابى أن يوفق أو يلفق بين رأى الحكيمين ، يعنى الفيلسوفين الكبيرين : أفلاطون وأرسطو - رغم اختلافهما المعروف فى المنهج والنظرة - بدعوى أن الحقيقة واحدة لا تختلف . ووحدة الحقيقة أمر مسلم به ، ولكن أفكار الباحثين عنها ليست واحدة ، ولا يمكن أن يكون الشئء وضده واحداً .

أما الذى نؤمن به فهو (الاقتباس) و(التطعيم) على أن يظل الأصل غالباً متميزاً . وفرق بين هذا الاتجاه (الاقتباس والتطعيم) وبين اتجاه التوفيق أو التلفيق : أن التطعيم يقتضى أن هناك شيئاً أصيلاً قائماً بذاته ، له جذوره وامتداده وكيانه وخصوصيته ، يطعم بشئء آخر من جنس مقارب له ، ولكن لا يلغيه ولا يغير طبيعته وخصائصه ، أما التوفيق أو التلفيق فيقتضى المعادلة بين طرفين كل منهما أصل بذاته . ولهذا يتعلقان (الاقتباس والتطعيم) بالوسائل لا بالأهداف ، وبالفروع لا بالأصول ، وبالكيفيات المتغيرة لا بالقيم الثابتة .

وقد رأينا مثل الغزالى والراغب الأصبهاني وغيرهما من المفكرين المسلمين يستفيدون من الفلسفة اليونانية كثيراً من تقسيماتها وتحليلاتها ومصطلحاتها ، ولكنهم جعلوا ذلك فى خدمة الفكرة الإسلامية ، والقيم الإسلامية .

على أن أعظم ما فى الحضارة الغربية أمران : العلم التجريبي ، والديمقراطية السياسية .

أما العلم فهو فى الأصل مقتبس من حضارتنا كما شهد بذلك شهود من أهلها (بريفولت ، وجورج سارتون ، وجوستاف لوبون وغيرهم) . فإذا أخذناه فهى بضاعتنا ترد إلينا .

وأما الديمقراطية السياسية ، فأصولها عندنا فى البيعة والشورى ، وحق المسلم بل واجبه ، فى النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتقرير مبدأ المساواة والإخاء بين الناس ، الذين خلقهم الله من ذكر وأنثى ، وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا .

وعلى كل حال ، فإن أخذ النافع ، واقتباس الحكمة من أى وعاء خرجت ، أمر لا مرأى فيه ، وقد روى البخارى فى صحيحه عن النبى ﷺ : « أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد : ألا كل شئ ، ما خلا الله باطل » وكان لبيد حين قالها من شعراء الجاهلية .



٦ - النظرة التبريرية :

ونعنى بها تلك النظرة التى تقوم على تبرير الواقع القائم ، وهو واقع لم نصنعه نحن ، ولم نفكر فيه ، إنما صنع لنا ، وفرض علينا ، دون اختيار منا ، ولا اعتبار لرأينا ، ولا استشارة لنا .

والذى فرض هذا الواقع هو الاستعمار الذى رأى وقرر ، وصمم ونفذ ، كما فعل ذلك حين قرر إدخال القوانين الوضعية ، وألغى الشريعة الإسلامية ، وعمل بدهاء وتخطيط على (علمنة) الأفكار والمشاعر والتقاليد ، والمؤسسات المختلفة إلى جوار علمنة التشريع .

هذا الواقع الذى ورثناه عن عهد الاستعمار ، نجده فى جوانب كثيرة مناقضاً لأصولنا الإسلامية ، وموارثنا الثقافية ، ومع هذا يحاول فريق منا أن يمنح هذه الجوانب الدخيلة علينا ، سنداً شرعياً للاستمرار والبقاء ، وهى زنيمة مقطوعة النسب عن أمتنا وحضارتنا . أى أنهم يريدون أن يخلعوا عن رأس (الخواجة) الأوروبى (قبعته) ويلبسوه (عمامة) إسلامية ! أو (عباءة) عربية !

وما أكثر ما قرأت ، وسمعت من كتابات ومحاضرات ، تركب الصعب والذلول لتفلسف هذا الواقع ، وتبرره دون حجة ناهضة .

وأسخف هذه التبريرات ما حاول أن يستخدم الإسلام نفسه فى تبرير ما يناقض الإسلام ! وذلك فى فترات الهزيمة النفسية أمام زحف الحضارة الغربية ، وهى فى أوج قوتها ونحن فى حضيض ضعفنا ، حتى رأينا من يحاول تحليل

الحرام ، وإسقاط الفرائض وتعطيل الشريعة ، باسم الشريعة ذاتها ، حتى حاول هذا التيار يوماً أن يقتحم (الأزهر) نفسه على يد الشيخ على عبد الرازق فى كتيبه الشهير (الإسلام وأصول الحكم) ، ولكن الأزهر غضب غضبه التاريخية وأخرجه من زمرة العلماء .

إن رفض الإسلام علانية أقرب إلى الجدية من هذا الهزل الذى يلبس لبوس الجد ، وما هو إلا تبرير مكشوف القناع لواقع مرفوض رفضاً كلياً من جمهور الأمة .



النظرة الشمولية للصحة :

إن الصحة الإسلامية تنظر إلى هموم الوطن العربى الإسلامى ، نظرة شاملة تتسم بالأصالة والعمق والتميز ، ممتدة فى الماضى ، واعية للحاضر ، متطلعة إلى المستقبل ، وهى تقدم نظرتها لإنقاذ الوطن العربى الإسلامى فى صورة مشروع إحياء متكامل ، يعيد إلى الفرد الثقة والأمل ، وإلى الأمة هويتها وانتماءها ، ويقودها فى طريق الاستقلال الحضارى والتميز الثقافى ، يجمع بين الإيمان الراسخ والعلم المتجدد ، يرحب بالجديد النافع والقديم الصالح ، تعمل فيه التربية بجانب التشريع ، ويتكامل فيه الجامع والجامعة ، ويلتحم فيه الحاكم بالشعب ، ويتضامن فيه العرب بعضهم وبعض ويربط العرب بالأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط ، مشروع يتخذ الإسلام أساساً والإيمان منطلقاً ، والأخلاق ضرورة ، ويعتبر العلم عبادة ، والعمل فريضة ، والتنمية جهاداً فى سبيل الله ويعبئ قوى الأمة لمعركة التنمية بكل جوانبها الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ويعمل على زيادة الإنتاج وترشيد الاستهلاك وعدالة التوزيع وسلامة التداول ، ويأخذ من الحضارة الحديثة أفضل ما عندها من العلم والتكنولوجيا وحسن الإدارة والتنظيم ، متجنباً ما أصابها من الوهن والانحلال فى نواحيها الإيمانية والأخلاقية والإنسانية ، مما هو أصيل فيها ، ومما هو طارئ عليها ، مستغنياً بما عندنا عما عندها ، رافضاً نمط حياتها فى الاستمتاع والاستهلاك ، سالكاً سبيل القناعة والاعتدال ، مؤمناً بأن للحياة غايات أكبر من مجرد المتعة والجري وراء المنافع المادية واللذات العاجلة ، فى ظل تشريع ربانى . تؤمن الأمة بعدلته وقديسته وكماله وسموه ، وتنقاد لأحكامه طواعية

واختياراً ، بحكم إيمانها ، تشريع يجمع بين المثالية والواقعية ، وبين الفردية والجماعية ، وبين الثبات والمرونة ، وبين الأصالة والتجديد .

مشروع يقوم على تحريك شعوبنا كلها لتتعبد لله بالعمل ، وتفجير طاقاتها المخزونة للإبداع والإبتقان ، فى ظل حكومات شرعية دستورية منتخبة انتخاباً حراً نزيهاً وفى ظل نظام شورى (ديمقراطى) حقيقى يسود فيه القانون ، ويحس كل فرد فيه بالأمان على نفسه وماله وأهله وحرماته ، ويشعر أنه حر يستطيع أن يقول (لا) بملء فيه ، دون خوف من سياط الجلادين وسجون المستبدين . . . نظام يستطيع فيه الشعب أن يلتقى فى المسجد مع حاكمه كل يوم - أو كل جمعة على الأقل - وأن يرد عليه ولو كان على المنبر ، وأن يقول له ما قيل لابن الخطاب : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا !

مشروع يستنفر الأمة لمقاومة الخطر الإسرائيلى ، والعدوان الصهيونى ، الذى اغتصب الأرض ، وشرذ الأهل ، وأذل العرب ، وأهان المسلمين ، وتحدى العالم فلا بد من تعبئة أمة العرب والإسلام ، بإيمان جديد ، يرد إليها روح الحياة وحياة الروح ، ويذكرها بأيام خالد وقطرز وصلاح الدين . ويقودها بكلمة التوحيد وصيحة التكبير ، لا بالولاء لفلان وعلان من الناس .

ذلكم هو مشروع الصحة للإنقاذ والإحياء ، وهو مشروع ليس بالمستحيل ولا بالمتعذر إذا صدقت النيات ، وصحت العزائم ، وفيه وحده النجاة والخلاص ، ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) . وإننى أؤكد بكل ثقة أننا لن يتم لنا استقلال حقيقى سياسى ، واقتصادى ، ولن نتحرر من التبعية بكل ألوانها ، ولن تستقل لنا شخصية ، ولن يتم لنا انبعاث حضارى حقيقى ، نابع منا ، ومعبر عنا ، منا مبدؤه ، وإلينا منتهاه ، وبنا قيامه ، ولنا ثمراته ، إذا ظللنا للغرب ذيولاً وظلالاً ، منه الإرسال ، ومنا الاستقبال ، منه الفعل ومنا الانفعال ، منه الإنتاج ومنا الاستهلاك ، عليه أن يبدع وعلينا أن نقلد ، عليه أن يغنى وعلينا أن نردد .

إذا ظللنا على هذا المنوال ، فهيهات أن ننشئ لنا حضارة تخصنا .

أغلب الظن أننا سنبقى أسارى لحضارة القوم ، يأخذون تمرها ، ويلقون لنا بنواها ، ويأكلون لحمها ، ويمنون علينا بعظمها .

سنظل نستهلك أدوات الحضارة ولا ننتجها ، نشترها ولا نصنعها ،
سنظل نستورد من الغرب المواد الغذائية التى بها نقيم أودنا ، والأسلحة التى
نحمى بها أوطاننا !

سيتفنن الغرب فى استلاب الأموال التى أفاءها الله علينا ، حتى لا نبني
بها شيئاً يغنيننا عن الاستيراد ، وينفع أجيالنا التالية ، حتى يدعوا لنا ولا
يلعنونا .

سيغرقوننا فى دوامة استهلاكية لا تنتهى ، يأخذون المواد الخام من ديارنا
بأرخص الأثمان ، ثم يعيدونها إلينا مصنعة يسيل إليها لعابنا ، فنشترها منهم
بأغلى الأثمان .

حتى ما ليس لنا حاجة إليه يلحون علينا بوسائلهم حتى يخلقوا عندنا
حاجات تسوقنا إلى شراء منتجاتهم ، فنشترى ونشترى ونشترى ، حتى نغرق
فى بحر من الديون لا قرار له ، ولا شاطئ له .

إننا أحوج ما نكون إلى إنسان يستغنى عما عند القوم من كماليات
وترفيات وترفيهيات ، إنسان قادر على ضبط نفسه بالقناعة ، والزهد ، وأن
يعيش على نصف بطنه عند اللزوم ، بل يشد الحجر عليها عند الضرورة ،
إنسان يقول ما قالت المرأة العربية قديماً :

لبيت تخفق الأرياح فيه أحب إلى من قصر منيف !

ولبس عباءة وتقر عينى أحب إلى من لبس الشفوف !

وأكل كسيرة فى قعر بيتى أحب إلى من أكل الرغيف !

إننا نجد مثل هذا السلوك الآن حلماً بعيد المنال ، ومثالاً مغرماً فى
الخيال ، بل شيئاً قريباً من المحال .

وما ذاك إلا لأن الناس أصبحوا عبيداً للعادات الاستهلاكية التى أدخلتها
عليهم الحضارة الغربية بأساليبها الماكرة ، وإعلامها الساحر ، ووسائلها الجهنمية
المخططة .

ولكن تغيير عادات الناس وسلوكياتهم ليس بالمستحيل ، إذا دخل على
الناس إيمان جديد ، يقودهم من داخلهم ، ويخاطبهم من أعماقهم ، ويعينهم
على تغيير أنفسهم بأنفسهم .

إن الإيمان الدينى هو الشئ الوحيد الذى يمكنه أن يغير الإنسان تغييراً

جذرياً ، وينشئه خلقاً آخر ، جديداً فى أهدافه ، جديداً فى اتجاهه ، جديداً فى منطقته ، جديداً فى أخلاقه ، جديداً فى أسلوبه .

ذكر القرآن لنا نموذجاً بارزاً لهذا التغيير الكلى السريع ، وهو سحرة فرعون حين أعلنوا إيمانهم برب العالمين رب موسى وهارون ، وقالوا لفرعون ومن معه : ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

وذكر التاريخ لنا أعظم مثل لذلك أمة العرب ، كيف كانوا قبل الإسلام ، وكيف صاروا بعد الإسلام .

مرقائد من قواد الفرس على جماعة من جند المسلمين ، فرأهم - بعد أن توضؤوا وتطهروا - يصلون صفوفاً ، وراء إمامهم كالبنين المرصوص ، كأن على رؤوسهم الطير ، إذا قرأ أنصتوا ، وإذا ركع ركعوا ، وإذا رفع رفعوا ، فقال : أكل كبدى عمر ، لقد علم هؤلاء البداة مكارم الأخلاق ! .

والحق أن الذى علمهم ، وعلم عمر معهم إنما هو الإسلام .

نحن فى حاجة إلى تربية الأمة على نمط حياة جديد ، مستمد من قيمنا ، ومتلائم مع حاجتنا ، ومتناسب مع إمكانياتنا ، ثائر على نمط الحياة الغربية ، حتى لا يعود تقليدها أكبر همه ، ولا مبلغ علمه ، ولا محور سعيه .

ويسرنى أن أسجل هنا بكل إعجاب كلمة للدكتور جلال أحمد أمين فى (ندوة التراث وتحديات العصر) قال فيها :

« إن إطلاق وصف التنمية على ما حدث وما زال يحدث للاقتصاد والمجتمع العربى لهو وصف أقرب إلى السخرية منه إلى وصف الواقع ، يراد بإطلاقه تسكين الناس وتخديرهم حتى يتمكن الجراح الغربى من إتمام مهمته . الدخل يبدو وكأنه يتعاضد والسلع تتكاثر ، والمدن تتضخم ، والمدارس تتضاعف ، والكبارى العلوية والأنفاق السفلية تبنى وتحفر ، والناس تتدافع فى الطرقات والشوارع والمواصلات العامة وكأنها ذاهبة أو عائدة من أعمالها ، والسفن تأتى بالبضائع وتذهب بغيرها والناس تهاجر وتأتى بالسلع ، والأمر يبدو وكأن تنمية تحدث ، والذى يحدث فى الواقع ليس أكثر من عبث الأجنبى بأمة لا تدرى ما تصنع !

(١) سورة طه : الآية ٧٢ .

فالعرب يبيعون رأسمالهم من النفط ويسمون ثمنه دخلاً قومياً ،
أو يقبضون رسوماً على ما وهبه الله أو الأجداد لهم ، كقناة السويس
والأهرامات وأبى الهول ، ويحسبونها فى عداد الناتج القومى ، ويبيعون الطاعة
للأجنبى مقابل الهبات ، ويعقدون القروض لبناء الكبارى العلوية لكى تمر
عليها سياراته ، أو لشراء الأسلحة منه ليقاتلوا بها أعداءه ، ويعلمون أبناءهم
لغة الأجنبى ليخدموا فى بنوكه وشركاته ، أو يصدرونه للخارج ليشتروا بثمنه
أجهزة تعرض فضائح الأجنبى وجرائمه وسخافاته . فإذا قلت لهم : حذار ، إن
هذه التنمية معيبة ومشؤومة ، قالوا لك : ما عليك ، إن لدينا خطة خمسية
سوف نتدارك بها الأمر ، وإذا بالخططيين يجتمعون لمناقشة ما إذا كان معدل
النمو المستهدف يجب أن يكون ٧ بالمائة أو ٧,٥ بالمائة ! فأى أمل يمكن أن
يساورنا فى أن يؤدى الاستمرار فى تبنى المنطلقات والمسلمات نفسها إلى وضع
أفضل مما نحن فيه ؟ إنما يكمن الأمل فى طرح كل مسلمات التنمية الغربية
وبديهياتها للمساءلة والشك ، ولن نجد ما يمكن أن نستلهمه فى ذلك إلا
التراث « (١) .



(١) التراث وتحديات العصر : ص ٧٧٠ ، ٧٧١ .